د . عبدالله شريط

الاديب العربي بين الحرية والمجتمع

نحن كدولة وكمجتمع وكمثقفين ما زلنا نتعلم ونبحث عن طريقنا في ضباب من الافكار والرؤى المختلفه ، ولا نطمح الى المساهمة لا في المجال الثقافي ولا في مجال النظريات الاجتماعية والسياسية بشيء كبير فيما سبقنا اليه اخواننا في المشرق العربي منذ عشرات السنين من بناء لصرح ثقافة اجتماعية متمكنة .ولكننا،سواء في المجال الثقافي او الاجتماعي والسياسي نحاول بكل جهدنا ان لا نخطيء في رسم الخطوات الاولى ، لانها هي التي يتوقف عليها المصير الاخير .ونحذر كل الحذر ان لا نضع الحجرات الاساسية وضعا منحرفا ، حتى لا نقع البناية على رؤوس اجيالنا المقبلة .

واول ما نحاول ان نبدأ به في هذا الجهد المتواضع ، ان نبين مشاكلنا بوضوح ونتلمس مواقع ارجلنا بحذر ، ونطرح قضايانا طرحا صحيحا . ولكننا بعد ان نتأكد من صحة الطرح وسلامة التصور نمضي الى العمل بحزم وثقة في النفس .

وعلى هذا فانا استسمحكم العذر ان وجدتم في كلمتي كثيرا من الالحاح في محاولة حصر مشكلتنا الثقافية ، لان طرحها بوضوح وشجاعة هو الذي يعيننا على ان نعثر لها على حل صحيح في النهاية. كما اعتذر لكم سلفا عما يمكن ان تلاحظوه من جهلي في الثقافة الادبية المتخصصة ، فانا لست اديبا بالمعنى المتعارف عندنا من معنى الاديب ، اي لست قصاصا ولا شاعرا ولا روائيا ولا ناقدا للقصة او الشعر او الرواية ، وانما انا فقط مدرس فلسفة . لكني اميل الى العناية بالجانب الاجتماعي من الفلسفة : السياسة والاخلاق وعلم الاجتماع والثقافة ومن هذا الباب الاخير ، اذا سمحتم لي ،سأطرح مشكلة الاديب العربي بين الحرية والمجتمع .

وقضية حرية الكاتب أو الاديب كثيرا ما نتخذها هي وقضية الامية في مجتمعنا ذريعة لانقطاعنا عن هذا المجتمع . والحق ان الضغط المفروض على ادبائنا هو كبت مفروض فعلا وهو في كثير من الحالات ليس كبتا شريفا ، او في صالح المجتمع حقا ، وانما هو كبت يفتقر الى التقنين وفقا للمبادىء الخلقية التي تسير السياسة عادة وان لم تحترم دائما في اي بلد . ومع ذلك لنفتح هذا الملف ونفحصه جيدا : يقول الدكتور الحبيب الجنحاني الاستاذ بكلية الاداب بالجامعة التونسية، بعد ان يستعرض مفهوم الحرية في كل من العالم الماركسي والعالم الراسمالي والعالم الثالث :

« اعتقد ان من اكبر المشاكل التي تعترض الثقافة العربية المعاصرة هو تحديد الحريات في بعض بلدان العالم العربي ، وانعدامها تقريبا في بعض البلدان الاخرى ، وهذا ما جعل الثقافة العربية المعاصرة والمثقف العربي الذي يمثل هذه الثقافة العربية المعاصرة في وضع غريب ، شاذ ، فموقفه اما ان يكون غريبا متناقضا مذبذبا ،واما ان يكون نزيها صادقا مع نفسه يؤمن بمبادئه ، فينعزل ، ويصبح دوره في المجتمع هامشيا ، واما ان يسلك طريق الانتهازية ، محاولا تبرير انتهازيته هذه فيما يكتب ويقول . وكل هذه الاوضاع الشاذة ليست في خدمة الثقافة العربية المعاصرة . ان تحديد الحرية بالنسبة للمثقف العربي له انعكاسات مباشرة على الثقافة العربية المعاصرة » .

الحق اننا نذهب الى اكثر من هذا في مسالة الحرية وهو ان الكاتب العربي المعاصر لا يجد نفسه مقيدا من السلطة السياسية فقط بل هو مفيد ايضا من السلطة الاجتماعية : فكما لا يجوز له ان يمس الحرمات السياسيه ، لا يجوز له أن يتعرض للحرمات الاجتماعيه بسوء ، وهي التقاليد والمعتقدات ، والعلاقات المنحرفة . فالمجتمع يؤله ويشيره ان نمس تقاليده ومعتقداته وعلاقاته بسوء . والاديب او المثقف عندنا يشعر بالحاجه الى التغيير ويريد ان يهز المجتمع من اعماقه بالتحليل ولكنه يخشى ان يدخل في صدام مع المجتمع ومع السلطة . لكأنه ينتظر ان تطلب اليه السلطة السياسية او الاجتماعية ان يتناول تشريح أوضاعهم بمقصه وهو آمن مطمئن ، بل مشكور سلفا على ما سيفعل .

وهذا خطأ في التصور والسلوك معا .

فالتصور اولا لانه يتصور حرية العمل ، حرية في ان يكتب عن المجتمع لا الى المجتمع ويتصور الكتابة عن المجتمع نقدا للحكام حتى يمنحوا الحرية السياسية للمجتمع فيحتج كما يشاء ويتظاهر متى اراد. وان منعته الحكومة من هذا الكلام عن الشعب يفضل الانزواء في احسن الحالات او بيع ضميره الى السلطة في اسوئها ، فيمجد الطغيان ويتلمس المعاذير لسلوك السلطة وتصرفها . والتصور الصحيح للحرية هو ما حلله سارتر بكثير من الدقة وهو ان لا نكتب عن الشعب ونتوجه بكتابتنا الى السلطة السياسية دفاعا عنه وهو لا يدري ، لا نكتب عن الشعب شفقة ورحمة ونتصادم مع الحكام من فوق رأس الجماهير وفي غيبة مطلقة عن وعيهم .

التصور الصحيح للحرية هو ان نكتب للجماهير لا عنهم ، نتوجه اليهم لا الى حكومتهم . ونكتب للجماهير لا لنحرضهم او ننصحهم او نعطيهم المواعظ السياسية بل نتوجه اليهم فقط بتصوير حالهم ونموضع وضعهم ونصعد هذا الوضع عندهم من حالة الشعور الغامض الى حالة الادراك الواعي . لان المجتمع بعد هذا الوعي سيتولى هو الدفاع عن حريته ، ويعرف الطريق الى نيلها .ان الطرفين المتقابلين في وضعنا الراهن وعلى ضوء ما نطرح به مشكلة حرية الاديب هما الحكومة والكاتب ، الحكومة مطالبة ، والكاتب مطالب . اما الطرف الرئيسي صاحب الحق فهو غائب لم يتوجه اليه احد في الموضوع . انه موضوع حديث ،وليس صاحب كلمة،اي ليس موجودا .وهذا التصور للحرية يتبناه كثير من ادبائنا المخلصين الصادقين ، ولكنه موقف يضر بالمجتمع اكثر مما ينفعه لان الكاتب هنا يتوجه الى السلطة السياسية شكلا ويكتب عمليا لامثاله من المثقفين . وقد يحصل على لقب كاتب تقدمي او ثوري ثم هو يشعر بالرضى عن نفسه لانه ارضى ضميره بالسخاء الذي اعطى به جهدا في الكتابة عن الشعب . وخاصة عندما يكتب الكاتب عن الشعب وهو يجهل تفاصيل همومه ولم يشعر بها ولم يعشها ، انه هنا يصبح متبرعا بعاطفته الانسانية وفنه الادبي على الطبقات الشعبية من بعيد . وجهله بحياة الشعب الحقيقية تجعله يزيف عن غير قصد مطالب الجماهير الحقيقية العميقة ، فيكتفي بالمناداة العامة مثل الحرية والعدالة ، ولكنه في كل هذا المجهود لا يصور حالة الشعب ، في تفاصيلها للشعب حتى يتشربها المجتمع بكل اعماقه ، ويتولى بنفسه تغيير اوضاعه معتمدا على استقلاله الفكري وعلى وعيه بأن القضية قضيته . ويبقى فضل الكاتب انه بعث فيه الوعي وصيره بيقظته الفكرية قادرا على تغيير اوضاعه بنفسه ، بل

وقادرا على احداث التغيير في الاتجاه الذي اصبح يعرفه وليس في الاتجاه الذي تتصدق به عليه السلطة تحت نداءات السخاء التقدمي والانساني التي اصدرها الكاتب للسلطة .

والمضرة الاخيرة لهذا التصور الخاطيء لحرية الكاتب هو انه لم يصور المجتمع للمجتمع حتى يغير نفسه بنفسه ، واذا توجه مباشرة الى السلطة الحاكمة بدلا من التوجه الى المجتمع فان مجهوده سيتعرض لاحد خطرين احلاهما مر كما يقول ابو فراس : اما ان تسكته السلطة السياسية وتمنعه من الكتابة فيحرم منها المجتمع المقبل كما حرم منها المجتمع الراهن ، ولا تستطيع الجماهير ان تدافع عنه لانها لم تشعر به ولم تعرف مواقفه ولا اسباب تصادمه مع الحكم فيذهب ضحية باردة ، ويكون مصيره في هذه المعركة الفاشلة كمصير قائد يحارب وحده ، وجيشه نائم في الثكنة .

والاحتمال الثاني ان تستجيب السلطة لتحقيق الحرية التي يطالب بها الكاتب للمجتمع ، ولكنها تاتي حرية لا يقدرها المجتمع ولا يعرف قيمتها ، وقد يستعملها استعمالا سيئا ، او يتصرف فيها تصرف السفيه في ثروة لم يتعب في جمعها بكده ، فيبذرها ويعود تبذيرها على مصيره بالشنع وسائل الطغيان من جديد ، ولا يجد الكاتب والمفكر والاديب بعد ذلك مناصا من النقمة على المجتمع نفسه والانضمام الى صفوف القوة الحاكمة والتمتع معها بثروات الحكم على قبر المجتمع .

ان الحرية الاولى التي يجب ان يعيها الاديب والمفكر ليست حرية المجتمع السياسية ،بل حرية المجتمع الواعية . بحيث قد لا يتعرض الكاتب فيها للمتاعب السياسية ولكنه يتعرض لمتاعب اشد تعلق بمهنته وباتقان فنه ، فيتعرف ، بعد الثقافة الفلسفية الضرورية ، الى تفاصيل ودقائق حياة المجتمع ويصورها بدقة وواقعية وعمق يتجاوز المباديء العامة والمواعظ السطحية يصور القوانين المطبقة على حياة الناس في الشارع والعمل والادارة ويصور محاكمة في المحاكم تذهب فيها امرأة مغرورة ضحية لتعصب القاضي ضد العنصر النسائي ، ويصور في الحياة العائلية عنق فريق من المجتمع وقد التوى الى الوراء ، وفريق اخر يتطلع الى الامام ، وكيف يتحكم الاموات في مصاير الاحياء كما يقول اوغست كونت ، ويصور المصلحة الخاصة عند التاجر او الموظف وقد طغت على المصلحة العامة .

ويصور النفاق الاجتماعي عند رجل الدين ، وهو يعيش بافواله في واد ، وباعماله في واد اخر .

ان هذا التصوير مهما كان محايدا ، ولكنه بالغ الرقي من حيث الاتقان الفني ، هو النداء الحقيقي الى الحرية ، وهو الذي سينطلق منه المجتمع في معركته من اجل تغيير اوضاعه كلها لا السياسية او الاجتماعية وحدهما .

ويبلغ الكاتب ذروة الالتزام عندما يتخذ من كل ذلك موقفا ، مهما كانت فنية الموقف ، يساعد المجتمع على تبين سبيله نحو المستقبل.

اما الخطأ في السلوك ، وهو ناشيء عن الخطأ في التصور ، فيتمثل في ان الاديب في بلادنا العربية بما انه لا يعتبر عملية الوعي الاجتماعي معركة ، هو طرف فيها ، فانه لا يريد ان يصاب بسوء في هذه المعركة . انه يتصور حرية التعبير تختلف طبيعتها عن طبيعة الحرية السياسية للمجتمع ، بحيث يجب ان تمنح له منحا ، ولا ينتزعها ولا تذهب ضحيتها اجيال واجيال من الكتاب والادباء ورجال الفكر . وهو عندما يطالب بحرية التعبير يطالب بها بصوت خافت كانه غير واثق من حقه في نيل هذه الحرية ، او غير متاكد من قوته في المعركة ، فيبدأ المعركة بنفسية حذرة قبل المعركة . لا لانه اقل شجاعة مادية بدليل انه كان يمتلك هذه الشجاعة في معركة التحرير الوطني ضد الاجنبي المحتل . ولكن الفرق بين شجاعته مع العدو ، وخفوت صوته مع الحكومة الوطنية ، هو وثوقه من وجود الشعب الى جانبه في المعركة ضد العدو، وعدم وثوقه من وجود الشعب الى جانبه في صراعه مع حكومته الوطنية من اجل حرية التعبير . ان الموقف الصحيح في المطالبة بالحرية هو ان تتصور ان لها ثمنا ونقبل بدفع هذا الثمن ، وان نتصور بعد ذلك ان حليفنا الوحيد في المعركة، هو مجتمعنا . وطبعا هنا نقع في مشكلة الدور والتسلسل : لا نستطيع ان نكسب معركة حرية التعبير الا اذا وقف الشعب الى جانبنا فيها ، ولكن الشعب لا يمكن ان يقف الى جانبنا الا اذا توفرت حرية التعبير لتجنيده ، وبعبارة اخرى : يجب ان تسمح لنا السلطة السياسية بحرية التعبير حتى نستطيع ان تجند الجمهور ليؤيدنا في مطالبة السلطة السياسية بحرية التعبير .

ونعرفون معي بان هذا المنطق غير مستقيم ولا يقف على ساق ثابتة ، انه ليس الا هروبا من الحقيقة التي ليس منها بد ، وهي قبول احد امرين : ان نصارع من اجل حرية التعبير ، واما ان نقبل بالهزيمة قبل ان نخوض المعركة ، كما نفعل الان ،ونستكين للامر الواقع .

ثم ان وضع المشكلة بهذه الطريقة يتناول في الحقيقة جزء من الادباء العرب الذين يلاقون اضطهادا حقيقيا في بلدانهم اما الجزء الاخر منهم فهم لا يستكون ،او يجب ان لا يستكوا من هذا الاضطهاد لانه لا يوجد بالشكل الذي نريد ان نتصورها عليه وان هم لم يملكوا حق حرية التعبير في انتقاد سلوك الحكومة السياسي ، فهم يملكون قطعا حق تصوير المجتمع للمجتمع ، كما قلنا ، ليتولى هو تغيير مصيره السياسي .

ان فقدان حريه التعبير اذا كانت بالنسبة للبعض منا معركة سياسيه حقيقية ، فهي ليست كذلك بالنسبة للبعض الاخر .

ومع ذلك فاننا اذا كنا نعترف في درجة معاناة مشكلة حرية التعبير ، فاننا نلتقي كلنا في درجة واحدة من حيث التشكي من فقدان هذه الحرية وخاصة من حيث استعمال هذا التشكي كذريعة لانقطاعنا عن المجتمع ، وعدم التوجه اليه مباشرة لتصوره لنفسه كما هو . ولاننا نتصور هذه القطيعة طبيعة ، واخيرا لتعودنا كما يقول ابن خلدون بالتجريديات التي نتلهى بها عن الواقع . او كما يقول « سارتر » ايضا نتخذ من الادب مادة قد تصلح للحديث عن انفسنا او عن الميتافيزيقا والسحر ، ولكنها ليست تبليغا . ان عزلة الاديب عن المجتمع مزيفة من وجهين فهو يعرف ان العلاقة الحقيقية تقوم بينه وبين الجمهور ، ويتخذ الجمهور موضوعا ومادة لفنه ، ولكنه من ناحية اخرى يتوجه بادبه وفنه الى امثاله من الادباء البعيدين مثله عن الجمهور . انه يمد يده من فوق القرون الى ادباء عصور الانحطاط، ممن كان انتاجهم يكتسب طابع القداسة الكنيسية ، ويولي ظهره للحياة . وهنا حتى عندما يكون الاديب ذا نزعة تقدمية فانه يكون متمردا فقط لا ثوريا ، لانه لم يتوجه الى الشعب حتى ولو تحدث عن الشعب، ومن ثم فان ادبه عاجز عن ان يجعل الشعب قادرا على تحرير نفسه ، لان المجتمع اذا حررته السلطة السياسية او السلطة المعنوية ولم يحرر نفسه بنفسه ، فانه لا يكون حرا.اما مشكلة امية مجتمعنا التي اتخذناها حجتنا الكبرى التي نتذرع بها في شرعية انقطاعنا عن المجتمع ، ولعل من اسبق من اثار هذه المشكلة عندنا هو توفيق الحكيم في كتابه ادب الحياة . فانه يجوز لنا ان نتساءل : هل الامية في الشعب حاجز حقيقي يبرر هذه القطيعة آخذ على ذلك مثلا من عندنا في الجزائر . في عهد الاستعمار كانت الامية عند الكبار والصغار والرجال والاناث امية مطبقة وشاملة ، اعني امية في الكتابة والقراءة وامية في التفكير والذوق ، وامية حضارية عامة . وفي الثلاثينات تكونت عندنا وحدات مثقفة قليلة العدد ضعيفة العدة الفكرية ولكنها لم تلبث ان تجمعت واسست جمعية صغيرة ولكنها محرومة من كل الوسائل المادية مكبوتة من كل حرية في التحرك والعمل ، مسودة امامها كل السبل لكسب الرزق باعتبار اشخاصها مثقفين بالعربية ،ويعيشون في بلد العربية فيه معتبرة لغة اجنبية ، ولا حق لصاحبها في استعمالها في الحياة وكان يرأس هذه العصبة رجل نبع من اسرة ثرية

محظوظة وكانت على علاقة طيبة مع السلطة الاستعمارية ، واعني به المرحوم الشيخ عبدالحميد بن باديس هذا الرجل وأصحابه القليلون وجدوا انفسهم امام خيار ، ليس ثقافيا فحسب ، بل هو في الوقت نفسه خيار سياسي : اما ان يضعوا انفسهم تحت تصرف السلطة الاجنبية فيحصلوا على اسباب قوت مهين ولكن توصد امامهم ابواب التبليغ الى الشعب واما ان يتوجهوا الى الشعب فيعيشوا معه في حرمان وتضحية واضطهاد ويثقفوه دينيا وسياسيا واجتماعيا ولكنهم يفتحون على انفسهم غضب السلطة الاستعمارية فاختاروا الحل الثاني، وهم على بينة من امرهم . وهجر ابن باديس اسرته وزوجته يبيت ليلا في خلوة مسجد ويلقي نهارا معدل اربعة عشر درسا ويشرف على مجلة شهرية ويسير جمعية شبه سرية او مضغوطا عليها ومراقبة من الشرطة الفرنسيه ، ويكون المدارس الشعبية والجمعيات الكشفية ، ويتنقل من مكان الى اخر وهو في كل اتصالاته يعمل مع اميين او انصاف اميين ، ويحملهم المسؤوليات ، ويدربهم على تسيير جمعياتهم المحلية تسييرا ديمقراطيا فيما بينهم يعتمد الشورى وانكار الذات وتشجيع المخلص القوي الشخصية حتى ولو كان اميا . وتخرج مع مرور السنين من هؤلاء الاميين كتل من الناس ان بقوا اميين من حيث القراءة والكتابة الا انهم اصبحوا مثقفين في السياسة والتنظيم وتسيير المؤسسات الثقافية والاجتماعية والكثيرون منهم اصبحوا في الثورة المسلحة اطارات في مستويات مختلفة ، نستطيع ان نلتقيهم في اي ميدان فنجد تجاوبا وتشعر انك امام عقول ناضجة متفتحة مدركة لمشكلات الحياة المعقدة ، ولا تجد اي صعوبة في تلقينهم الافكار الثورية بل تجدهم يحاسبون المثقف على سلبيته في الحياة واميته السياسية ولا ينظرون اليه نظرة القداسة الساذجة بل نظرة الند للند .

نعم هذه العصبة تعذب رجالها وشردوا وقضوا اجزاء كبيرة من عمرهم في المنفى والاعتقال ولكنهم كانوا دائما محاطين برعاية الشعب يجدون فيها عزاءهم ويستمدون منها قوتهم الروحية التي لا تقهر ، واستطاعوا ان يعطوا للشعب في ظل رقابة صارمة وقمع لا يرحم كل ما عندهم من معرفة دينية وادبية وسياسية واجتماعية ولم يشعروا يوما، وان طالبوا بذلك سياسيا ، انهم في حاجة الى الحرية لكي يكونوا الشعب ويثقفوه ، او اعتبروا الامية حاجزا يقف بينهم وبين جماهير الشعب . بل توجهوا اليه مباشرة فايقظوا وعيه ، وتركوا سلطة الاستعمار بعد ذلك تتصارع مع ذلك الوعي كما اصبح الشعب هو الذي يقاوم الامية بانشاء المدارس الاهلية والنوادي الثقافية والتشكيلات الرياضية والمسرحية والفنية . لقد ادركوا ان تكوين الوعي في الشعب يصير الوعي قوة مادية كما يقول ماركس .

واليوم نحن المثقفين في الجزائر المستقلة نستطيع ان نتصل بالشعب ونوقظ وعيه الاجتماعي وندخل به في مرحلة جديدة من التطور الحضاري والرقي الفكري وفيه قطاعات واسعة تحررت من امية القراءة والكتابة ولكننا لم نبذل جزءا من مائة مما كان يبذله جماعة ابن باديس القليلة المضطهدة ، بل انقطعنا عن الشعب انقطاعا يكاد يكون كليا وانعكس هذا الانقطاع على مستوى الوعي السياسي والوطني عند شبابنا فبقوا نهبا للتيارات الثقافية الاجنبية ولا يكادون يعرفون شيئا عن شخصيتهم الثقافية الخاصة ونتناقش في هذا الموضوع ونقوم بالمقارنة بين شباب الامس عندنا وشباب اليوم ونخرج بهذه النتيجة السلبية الوحيدة وهي ان شباب الامس كونه الاضطهاد الاستعماري ، وشباب اليوم افسدته رفاهية الاستقلال .

على ان الاديب لكي يضطلع بعبء هذه الرسالة ، رسالة التغيير الاجتماعي ، يجب ان يهتم بميدان اخر من الدرس ، يتمثل في الاهتمام والعناية والحرص ونظرته الى قضية وعي المجتمع نظرة شخصية تهمه هو في الدرجة الاولى قبل المعلم والسياسي ورجل الدين ، ومن ثم يبحث لها حتى عن الوسائل العملية التي تمكنه من الاضطلاع بها ، ولا يعتمد على احد فيها . هذه الوسائل يمكن ان نلخص اهمها فيما يلي:

اولا : التأكيد على ضرورة الثقافة الفلسفية والاجتماعية المعمقة.

ثانيا : ان يتابع سياسة بلاده في الميدان الثقافي من المدرسة الابتدائية الى المسرح والكتاب والمكتبة ، وكل ما يباع ويشترى ويتداول في سوق الثقافة في بلاده . ويتتبع ما تنفقه الدولة في هذا المضمار بالقياس الى ميادين اخرى. لان هذا المجهود يتيح له من ناحية ان يتعرف بواسطة الاحصاء الى عدد الاميين والقراء ونوعيتهم ومن ناحية اخرى يساعده هذا الاطلاع على معرفة نوعية المثقفين في بلاده حاضرا ومستقبلا ،اي نوعية الجمهور الراهن ، وجمهور الغد ، كما يمكنه من السهر على توجيه الثقافة والتعليم في بلاده وجهة تهدف الى انتاج يتحسن باستمرار في الميدان الثقافي وذلك باعطاء رأيه في الصحف ووسائل الاعلام المنوعة وفي توجيه الدراسات الثقافية والاجتماعية عامة.

هذا المجهود لا اعتقد انه يتطلب قدرا كبيرا من حرية التعبير لكي يهتم به الاديب ويعطي فيه اراء بناءة بعيدة عن التهجم الذي يثير الملاحقة او المنع حتى في اكثر الاقطار العربية ضغطا على الحريات .

ثالثا : يتتبع ما ينشر في بلاده من مجلات وكتب وصحف وبرامج اذاعية ومتلفزة وما يعرض على الجمهور من افلام سينمائية اجنبية او وطنية ، ويدرسها من ناحية الكيف والكم والصلاحية وسلامة الاتجاه وخصوبة المضمون الفكري والاخلاقي والفني .

رابعا : يتتبع التجارب الثقافية في البلدان الاجنبية ، وما كان منها ناجحا او فاشلا باحثا عن الطرق التي يستطيع ان يتبنى بها بعض تلك التجارب في بلاده ويؤقلمها ويقترح ذلك في بحوث ينشرها، وفي محاضرات يلقيها .

خامسا : من خلال هذا التتبع للواقع الثقافي في بلاده وخارج بلاده يستطيع الاديب ان يطرح مشكلة العلاقة بين انواع الثقافات التي تطرح في بلاده او تهيأ بها اجيال المستقبل : ما هي العلاقة بين التعليم الديني والتعليم الحر والتعليم الاجنبي ، وماذا سيكون تأثير كل ذلك في تكوين اجيال المستقبل ثقافيا وفكريا ، ويقترح من خلال تصوره لهذه العلاقات توجيها معينا يوفر به على اجيال الغد ما تعانيه اجيالنا الراهنة من فوضى فكرية واضطراب خلقي وتمزق ثقافي .

ذلك ان من مهام الاديب تصور مشاكل الغد ، والعمل على تلافيها منذ اليوم ، حتى لا تخلق في مجتمع الغد نفس المشاكل التي يعانيها مجتمع اليوم الى جانب مشاكل اخرى سيطرحها عليه عصره .

ان الاديب مسؤول ايضا عن التفكير في ثقافة ما بعد عصره ، ونجاحه في تحقيق مجتمع منسجم في الغد يتوقف على مدى اقناعه لكل القوى الحية في مجتمعه على اعتبار الثقافة شيئا ضروريا لا لحياة المجتمع فقط بل ضروريا لحياة الدولة نفسها ، ولتوفير الانتاج الاقتصادي، فضلا عن الرقي الحضاري ، وان الثقافة ليست لهوا او عبثا ، كما يتوقف على المحتوى الذي نعطيه نحن الكتاب والمفكرين والادباء والباحثين للكتاب والمحاضرة والمقالة والفيلم .

سادسا : يفكر في الوسائل العملية التي يقترحها لتمكين الجمهور من التحصيل على اكبر قسط ممكن من الثقافة كتنظيم اوقات العمل والمواصلات ، وتوزيع المكتبات في الاحياء الشعبية وقاعات المسرح ، وتنظيم العمل للموظفين والعمال بشكل يتلاءم مع توفير وقت كاف لتنمية ثقافتهم ، ذلك ان الاديب الحق يجب ان يخلق جمهوره من العدم : لا بمادته الانتاجية المشوقة فقط ، بل وايضا بالعمل على تيسير الحياة للجمهور حتى يستطيع ماديا وزمنيا ومكانيا ان يستقبل الانتاج الثقافي الذي يقدمه له الاديب .

سابعا : ان لا يعتمد الاديب في خلق هذه الوسائل كلها على اقناع السلطة السياسية او البلدية بضرورة توفيرها بل وهو يستطيع في الكثير منها ان يعتمد على المجتمع نفسه ، فيخلق فيه حساسية للثقافة تدفعه الى تأسيس الوحدات الثقافية وتجهيزها بالمجلات والاثاث والكتب ومختلف وسائل التثقيف .

وهذا ايضا يعتمد على مدى ما يستطيع الاديب ان يخلقه من وعي

في الجمهور بضرورة الثقافة لحياته كلها ، اي يتوقف على مدى ما نخلقه في الجمهور من الحس للغذاء الثقافي حتى يصبح عنده في مثل اهمية الغذاء المادي .

ثامنا : هذا الجهد الذي يجب ان يبذله الاديب في تكوين نفسه وتكوين جمهوره ، لا ندعي انه سيغير المجتمع ،او يحمله على تغيير نفسه بين عشية وضحاها ، ولا ندعي كذلك ان هذه الوسائل نفسها سيحققها الاديب والمثقف بسهولة ويسر ، بل ولا ندعي حتى اننا سنجد الحل الجزئي لهذه المشكلات ، ولكننا ندعي فقط انها مشكلات ووسائل جديرة بالعناية والبحث والتحليل والمواظبة وطول النفس . فقد لا يتوقف حلها على جيل واحد من الادباء والمفكرين ، ولكن الذي لا نشك فيه ان مجرد توجيه المجتمع الى التفكير فيها سيجعله يتولى بنفسه خلق هذه الوسائل بمجرد ان يتحقق لديه الوعي بقيمتها .

وما نريد ان نؤكده ايضا هو ان هذا التكوين الاجتماعي لخلق الجمهور المثقف المستهلك لادب الاديب ، لا يمكن ان نعتمد فيه على احد سوانا . فنحن الذين نعرف ان المجتمع الذي لا يستثمر ثقافيا هو خسارة للوطن وقوة ضائعة ،بل وتبذير غبي واهمال اجرامي لاثمن ثروة في اي بلد ، وهي ثروة الانسان ، وذلك مهما كان نوع النظام السياسي القائم في بلادنا .ان الطائفة الاجتماعية التي تستثمر شيئا من الثقافة في مجتمعنا العربي الراهن هي فئة المثقفين انفسهم .وهي فئة صغيرة عدديا في مجتمع امي ثم هي عزلاء كيفيا ، لا تستطيع ان تقيم نهضة ثقافية واجتماعية فضلا عن النهضة الحضارية اذا لم يسندها جمهور واسع من مختلف طبقات الشعب .

ان الاديب بخلقه جمهورا متحمسا للثقافة واعيا لقيمتها يجعل المجتمع يغذي نفسه بنفسه ثقافيا اكثر مما تفعل الدولة مهما كان حكمها ديمقراطيا واطاراتها تقدر الثقافة ، واضرب لكم على ذلك مثلا من فرنسا حيث يتوفر الباحثون على الاحصائيات التي تساعدهم على التعرف الى وضعهم الثقافي،وحيث يتمكن الاديب من ارساء قواعد فنه الاجتماعي الصحيح : يقول جرار بيلوان في كتابه « الثقافة والمجتمع والشخصية » :

« ان نظرة سطحية على نظام التعليم عندنا قد تخدعنا بان كل الاطفال الفرنسيين يذهبون الى المدرسة ، ويجلسون على نفس المقاعد ، وهم متساوون في كل الخطوط المدرسية : ولكن الحقيقة كما تدل عليها الارقام هي : ان من بين الف طفل من ابناء الموظفين الكبار واصحاب المهن الحرة يجتاز منهم الى المستويات العليا من التعليم ٥٧ طالبا ، ومن بين الف طفل من ابناء العمال يبلغ الى التعليم العالي ٣٤ طالبا فقط . والنوع الاول ينجح منهم وينتهي من التعليم الابتدائي في سن ١١ سنة ثلاثة اطفال من اربعة . ومن الطبقة الثانية ينجح في نفس السن طفل واحد من ثلاثة . والعرقلة الى التعليم العالي تبدأ من هنا. اذ يترك التعليم الثانوي ٥٥ في المائة من ابناء الفلاحين ، و٤٢ في المائة من ابناء العمال ، و٤٠ في المائة من ابناء المزارعين ،و٣٢ في المائة فقط من ابناء الاطارات العليا » .

وقد تقولون ما دخل التعليم في اوضاع الثقافة وماذا يهم الاديب منها ، ولكن انظروا الى النتيجة التي تولدت عنها هذه الوضعية الاجتماعية بالنسبة للثقافة العامة واستهلاك الكتاب على وجه الخصوص، يقول نفس المؤلف في هذا الصدد :

« ان كل ما يتعلق بالقراءة والمطالعة ومتابعة النشاط المسرحي، وحسن اختيار ما يعرض من الافلام السينمائية او المتلفزة من برامج ثقافية للغذاء الفكري ـ كل ذلك له علاقة مباشرة بقضية التعليم . اذ المدرسة تلعب دورا حاسما في تكوين الميول الثقافية التي تغرسها .. وتدل احصاءات ١٩٦٨ في فرنسا ان ٤٧ في المائة من عمرهم في سن ١٥ سنة واكثر لا يملكون اي شهادة مدرسية و٣٩ في المائة لهم الشهادة الابتدائية ،و٧ في المائة لهم شهادة البكالوريا . و٦ في المائة اكثر من البكالوريا . فكان من نتيجة ذلك انه ما يزال الى اليوم في فرنسا اكثر من نصف الفرنسيين لا يقرؤون كتابا ،بل ان رئيس لجنة الشؤون الثقافية السيد «جوليان كان » قال : « ان فرنسا في ميدان قراءة الكتب ما تزال بلدا متخلفا » . وهذه الاحصائية تتناول الفرنسيين بصفة عامة .اما في اوساط الفلاحين والعمال فان نسبة من لم يقرؤوا كتابا واحدا في حياتهم تبلغ ٧٤ في المائة من العمال و٨٢ في المائة من الفلاحين » .

واخيرا يصرح نفس المصدر بان ٤ في المائة فقط من الشعب الفرنسي يهتم بالمكتبات العامة وان وزارة الثقافة في فرنسا لم تتكون الا سنة ١٩٥٩ .

هذا ما يجري في فرنسا بعد ما يقرب من قرنين من الثورة الفرنسية التي كونتها افكار الكتاب والادباء والمفكرين ولكن استولى عليها فيما بعد سماسرة السياسة وجعلوا مشكلة الثقافة تاتي في مؤخرة اهتماماتهم ، ولا يكونون لها وزارة خاصة الا منذ خمسة عشر عاما .

وكان ابن خلدون من قبل قد لفت انتباهنا الى العلاقة بين الادب والتعليم واستخلص ان ضعف الحياة الادبية في المغرب راجع الى ضعف التعليم في المغرب بالنسبة لما كان عليه في المشرق والاندلس .

اريد ان استخلص من هذا نتيجتين : الاولى ان تتبع اوضاع التعليم والمساهمة في توجيهها داخل في اهتمامات الاديب والتعرف الى اوضاع مجتمعه التي هو مطالب بمعالجتها وتصويرها في فنه او بحوثه .

الثانية ان الدولة قد تكون غنية ومزدهرة وذات اطارات مثقفة واسعة ، ولكنها مع ذلك تهمل العناية بتوفير الغذاء الثقافي للمجتمع، وذلك لسبب بسيط هو ان المجتمع نفسه لم يشعر بالحاجة الى هذا الغذاء ولم يطالب دولته بتوفيره له . وهو لم يشعر بهذه الحاجة لان الاديب والمفكر والمثقف عامة لم يكوّن في المجتمع التحسس لهذا الغذاء ولم يخلق فيه الشعور بالحاجة اليه ، كما كون فيه السياسيون الشعور بالحاجة الى الحرية السياسية وتكوين الاحزاب وتعدد الصحف حسب الاتجاهات والمصالح .ان الشعب الفرنسي ،واقصد اوسع طبقاته الشعبية ،ما يزال من حيث الشعور بالحاجة الى الثقافة قريبا من مرحلة ما قبل ثورة ١٧٨٩ .

فاذا كان الوضع الثقافي بهذه المثابة في بلاد تلقب عاصمتها بمدينة النور لانها عاصمة بلاد الثقافة في العالم ، فكيف يكون وضعنا نحن في البلاد العربية لو كتب لنا ان نطلع على هذا الوضع بطريق الاحصاء والتحليل ؟

ولكن ما نحن في حاجة اليه اليوم ليس ان نخلق حساسية في جمهورنا العربي للثقافة والادب ، بل ان نخلق نحن قبل ذلك حساسية في جمهورنا المهمل ثقافيا فلا تهتم به الدولة ولا يهتم به المثقف ، ان نشعر نحن بدرجة كافية من الوعي ان انساننا العربي ما لم يحصل على مستوى ادنى من التكوين الثقافي واليقظة الفكرية ، فلن تكتمل ادميته وهو من ثم لن يشعر بالحاجة حتى الى الحرية السياسية التي يطمح اليها المثقف وحده . وفي هذا خسارة لا على الانسان العربي وحده ، بل خسارة كذلك على الاديب نفسه ، انه يطالب السلطة السياسية بحرية التعبير او الحريات السياسية الكاملة ، ويفعل ذلك وحده وبدون سند من الشعب كانه يندب حظه في الصحراء ، لان الشعب لا يشعر مثله بهذه الحاجة الى الحرية السياسية ، وهو لا يشعر بها لانه لم يستكمل انسانيته العقلية ، ان تغنينا اليوم ، ولو بصوت خافت، بالحرية هو من قبيل تغنينا بالحب الشخصي والمناجاة الفردية لامنية او حلم لا يهم المجتمع .

يجب ان نجعل من الحرية لا مشكلتنا نحن بل مشكلة المجتمع ،او مشكلة الاجيال القادمة . ولنمعن في عملية النقد الذاتي لانفسنا نحن الادباء والكتاب اكثر من هذا : ترى لو اعطيت الحرية الفكرية اللازمة

للاديب في البلاد الاشتراكية ، ولو لم يفرض عليه الالتزام نحوالطبقات الشعبية والعناية بها في ادبه وفنه ، هل كان يتجه كل الادباء والفنانين ويتجندون في هذا المجهود الجماعي الذي استخرجوا به تراث الطبقات الشعبية الفكري والفني من تحت غبار القرون ، وبعثوا فيه التجديد وابرزوا قيمه الانسانية وصعدوا به الى مستوى الفنون العالمية الراقية وقدموه غذاء فكريا وثقافيا لاوسع الطبقات من الفلاحين والعمال ؟

لقد رأينا في مثال الاحصائيات الفرنسية حيث ترك الاديب حرا يهتم اولا بالشعب كيف كانت نتيجة الثقافة في المجتمع الفرنسي .

واذا كان المثقف في البلاد الاشتراكية محرومـا من حرية الفكر ويشعر انه مستعبد للسلطة الحزبية التي توجهه وتضيق عليه الخناق ، فانه في البلاد التي يتمتع فيها بحريته المطلقة نظريا ، يشعر ايضا بأنه ابعد ما يكون عن ممارسة هذه الحرية عمليا. استقبلنا في مقر اتحاد الكتاب عندنا منذ بضعة اسابيع ادباء فرنسيين. كبارا من مجلة اوربية ، وتناقشنا في موضوع حرية الفكر ، فقلنا لهم: انكم تعيشون في بلاد الحرية الفكرية بكل اشكالها . فابتسموا بألم، واجابنا احدهم بقوله : تتصورون اننا احرار،وهذه مجلتنا تقارب النصف قرن من حياتها ، ولكننا الى اليوم لا نملك في ادارتنا اكثر من غرفة واحدة للراقنة ، ونصف قاعة للجلوس نقتسمها مع محام في نفس العمارة ، هل تعرفون لماذا ؟ لاننا لم نترك لاحد السبيل الى استغلالنا في الدعاية ، اذن فانتم ترون ان الحرية لها ثمنها ايضا في البلاد المتقدمة . ثم ونحن لا حديث لنا فيما بيننا الا عن الحرية ،ولكننا لا نعالجها بصوت مرتفع ، ما هي الضمانات التي تؤكد باننا عندما نحصل نحن لا المجتمع على هذه الحرية سوف نستعملها في توعية المجتمع الى اوضاعه البائسة التي يجب ان يغيرها ؟ من يضمن اننا لن نقع فريسة عندئذ للاغراءات الكثيرة التي تجعلنا كما وقع للادباء الفرنسيين بعد الثورة ، نسخر ادبنا وفننا واقلامنا لخدمة المصالح السياسية والاقتصادية الحريصة فقط على ابقاء الاوضاع المناسبة لها على ما هي عليه ؟ ومن يضمن اننا لا نستعمل اليوم حرية المجتمع كسلاح لننال به حرية لانفسنا فقط ، حتى اذا تحصلنا عليها التحفنا، وهو واقع اليوم ، بصفوف اصحاب الثراء والنفوذ في اسلوب حياتنا واهتماماتنا الفكرية نفسها ، ونسينا المجتمع لمصيره يصارع وحده بدون هدف كما عاش منذ مئات السنين ؟

ان الحرية الحقيقية التي نحن في حاجة اليها هي حرية انفسنا من انفسنا ، حريتنا من تقاليدنا الموروثة في فهم الثقافة ورسالتها ، والادب واهدافه الاجتماعية . حريتنا الحقيقية هي في ربطها بحرية مجتمعنا ، وحرية مجتمعنا هي عملية تحريره من الظلام الثقافي، وبالعمل على الاتصال به فكريا ولغويا ، والعيش معه وعدم الانقطاع عنه الى الكتب والتغافل عن همومه التي يحياها في عيشه اليومي وهو اقرب الى القرية منه الى الكائن الحي . وعملية تحرير المجتمع العربي ثقافيا هي ان نحرره قبل كل شيء من الوهم بأن ما يهمه هو الخبز بدون ثقافة واقناعه بان الخبز والكتاب مرتبط احدهما بالاخر. ونحن لا ندعي ان عملية التحرير سواء بالنسبة الينا ام بالنسبة لمجتمعنا ستتم بسهولة او في اجل سحري ، وانما نزعم فقط بأن عملية تحرير المجتمع الثقافي لا تتوقف على الدولة وحدها ،بل تتوقف على المجتمع نفسه في الدرجة الاولى ، وذلك بواسطة ما يكونه فيه الاديب من تحسس للغذاء الثقافي ، ثم هي مسألة لا تخضع لقواعد معينة يمكن تطبيقها بصورة الية في كل اقليم من اقاليم وطننا العربي .

وانما الذي يمكن ان نشترك فيه جميعا هو ان نجعل من قضية المجتمع والثقافة قضية نفكر فيها ونتناقشها ونحللها باستمرار في اتحاداتنا المحلية ، وفي اتحادنا العربي العام . ولنبحث لها عن الوسائل العملية والفكرية ونقبل في سبيلها ما هو ضروري من التضحية بالوقت والجهد وما نستطيع من المال ، وحتى ما يجب ان نتحمله من الضغط والحرمان والاضطهاد . لان كل ذلك داخل في ثمن الحرية .

اننا اذا عشقنا الحرية وحدها دون ان نفكر في وسائل تحقيقها سواء بالنسبة الينا كمثقفين وادباء ، او بالنسبة لمجتمعنا ، نكون كما قال جون دوي الامريكي ، قد برهنا على اننا ما زلنا على قدر كبير من البدائية ، واننا نعتمد على عقلية السحر في تحقيق الاهداف ، والسحر قد يكون طبيعيا او تلقائيا ولكنه غير مباح في عصرنا ، لانه يعطل البحث الذكي ،وتضيع الرغبة الانسانية والمجهود الانساني في عبث لا طائل تحته ، والفكر السحري يتمثل في المواقف التي نرجو الوصول فيها الى نتائج دون سيطرة حكيمة على الوسائل، هذا الاعتقاد ما زال يسود ميداني الثقافة والسياسة ، فنحن نظن ان شعورنا القوي نحو شيء ما يكفي للحصول على النتائج المرجوة فيه، فنهمل العمل التعاوني الذي يجب ان يتم بين الظروف المادية والوسائل الارادية . وهذا التعاون لا تؤكده الا الدراسة الدائبة عن قرب .ان هذه النتائج لا نستطيع الحصول عليها بوسائل لها القوة دون الفعل .. وفي مسألة الوسائل يجب ان نميز بين الادوات والوسائل ، فالمسامير والالواح والمنشار والمطرقة هي ادوات لصنع الصندوق وليست وسائل . الوسائل تتم عندما يضاف الى هذه الادوات عمل فعلي تستخدم به تلك الادوات في عملية معينة . ان الذراع واليد والعين هي الاخرى وسائل فعلية حين تقوم بعملية حيوية ، وهي تصبح وسائل تامة للعمل عندما تتلقى معونة خارجة عنها اي من المحيط ،فالعين تنظر الى لا شيء واليد تتحرك دون هدف . وكل هذه لا تصبح وسائل الا عندما تشترك في تنظيم عمل محدد للوصول الى اهداف محددة ترسمها ارادة الانسان » .

دار الطليعة تقدم

كيسنجر وصراع الشرق الاوسط

د . سعد الدين ابراهيم

منذ حرب تشرين اشتد لمعان اسم هنري كيسنجر في الشرق الأوسط والعالم العربي . وقد سبقت هذا اللمعان هالة ضخمة احاطته بها الصحافة الغربية عامة والاميركية على وجه الخصوص . وقد تلقفت صحافتنا هذه الهالة ونفخت فيها بالمزيد من المبالغة التي تسهلها لغتنا العربية بما عرف عنها من سخاء ، ويغذيها كتابنا بما عرف عنهم من خيال شرقي خصيب . وزاد من اسطورية هنري كيسنجر ما اخذ بعض القادة العرب يكيلون له من المديح والاطراء ، مع انه هو نفسه من راسمي ومنفذي السياسة الاميركية المعادية لمصالح العرب القومية .

ويهدف هذا الكتاب الى دراسة شخصية هذا الرجل والعوامل المكونة لها ، واستراتيجيته وتكتيكه ودوره في حرب اوكتوبر وازمة الشرق الاوسط،وذلك ضمن اطار منظور تاريخي وعقلاني شامل .